تقويم جديد لظاهرة الهجاء في الشعر العربي قبل الاسلام

الدكتور نوري حمودي علي القيسي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تظل محاولات الدفاع عن النفس ، والسيطرة الذاتية التي تثير في نفوس الافراد نزعات الاستحواذ ، وقدرات الاعتزاز التي تفرض عليه ان يدافع عن وجهة النظر الذاتية شكلا متميزاً من أشكال حياة الانسان ، ولونا واضحا من الوان حياته العريقة التي طبعت صورتها فوق كل حالة من حالات حرصه على الاستمرار ، وفي كل حركة من حركات تحسسه بالوجود ، لان حب الحياة والحرص على اكتشاف مجاهيلها ومتابعة استكمال بداياتها التي شدت الانسان اليها لا تنتهي عند حدود اللحظات السريعة ، ولا تقف ازاء التراجعات الحادة التي تعتري الانسان فيستحيل بعدها صوتا خافتا ، او رمزا اسطوريا متناهيا أو قطعة هامدة تستحق الرحمة أو تدعو الى الشفقة او الاستعطاف . وهذا هو السر في اندفاع الانسان لتجديد طاقته ، او تحقيق مطامحه والسير وراء الخوافق الأصيلة التي تملك عليه قدرة التحرك ، وتتوجه الوجهة التي تراها قادرة على هذا التحقيق ، وتمكنه من تطمين تلك الرغبات .

والمجتمع الانساني بكل أطواره ، ومختلف مراحله حقق في ظل هذه النوازع تطورات هامة مكنته من تغيير واقعه بما يتناسب مع تلك النوازع ووضعته في المواضع التي تتلاءم مع قدراته وامكاناته التي حققها افراد تلك المجتمعات . ولما كانت قدرات الافراد متفاوتة من حيث الاداء والاستيعاب ، ومحددة في اطار الظرف الزماني والمكاني . فقد جاءت أقدار تلك الاطوار متآلفة مع تلك القدرات وهذا ما اعطى المجتمعات صفة التميز ، وحدد لها مجال التحرك ، وقدر لها موضوعات التسلسل الحضاري في سلم الامم .

والانسان الذي سار في الموكب الحياتي لمسيرة الامم انسان له قدراته التي اخذها عن أبناء مجتمعه ، وتأثر بها في ظل تقاليد وقيم ذلك المجتمع ، وله وسائله التي يستخدمها لتحقيق ذاته ، وتأكيد شخصيته ، وتطمين رغباته التي يدافع عنها بكل الطرق الكفلية • فكانت الحركة السريعة واستخدام السلاح البسيط ، والتناول الممكن ، واللجوء الى التوسل والتضرع • والاستعانة بالاشارة والعبارة والكلمة • كل هذه الوسائل كانت تنمو نموا منطقيا مع طبيعة الحاجات التي تفرضها الظروف الانية والمرحلية لمسيرته هذه • وقد وهب الانسان عقلا يستطيع بواسطته ان يدرك حقيقة الاشياء ادراكا متفاوتا ويتلمس وسائل الاستخدام تلمسا مناسبا ، ووهب حكمة في الاستعانة بكل وسيلة بما يناسبها • ولعل الدراسات العلمية التي صاحبت تطور الانسان تقدم لنا النماذج الكفيلة بهذا السلم التطوري ، وبالوسائل المرحلية التي قدمها في كل مناسبة ، ولما كانت الكلمة جزء من هذا السلاح فلا بد ان تظل لصيقة بالاهداف الحقيقية التي نشأت في ظلها ، والتزمت بأدائها ، وعبرت عن مضامينها • ومفهوم الكلمة في هذا التحديد لايعني الكلمة السائبة او الكلمة التي تنتهي عند حدود استخدامها ، وانما المقصود بها الكلمة المتطورة التي اخذت حجمها في التعبير سجعا او نثرا او شعرا • والكلمة التي دخلت في تحديد الاهداف التي تحرك دواعي استخدامها ، لانها مرتبطة باسباب ، ومتصلة باعتبارات ، ومعبرة عن اغراض • وهذه كلها لايمكن ان تكون منفصلة عن حياتها وحركتها ولونها واسلوبها • ولا يمكن ان تضل غير فاعلة في تأثيرها وانفعالها واستجابتها ، وهذا يضع الشعر في مقام الوسائل الاخرى المستخدمة في الدفاع عن الانسان او التعبير عن رغباته الذاتية ، او الاحساس بما يعانيه من مشاعر التأثر او الانفعال وهذا ما تؤكده كل المضامين التي حملت مشاعر هذا الانسان خلال حياته الطويلة التي عانى في ظلها الوانا من القهر ، واصنافا من العذاب والتسلط ، وضروبا من التعسف ، الى جانب اناشيده الانسانية التي سجلت لحظات حبه او حزنه ، دفاعه عن نفسه او ارضه ، نزوعه

الى انسانيته او فرديته • وتتجلّى حقيقة هـذا التصور في ابيات قيس بـن خفاف الذي اعد للنائبات سيفا قاطعا ، ووقع لسان كحد السنان[1] •

فأصبـــحت أعـــددتُ للنائبـا
ت عِرضـاً بريئـاً وعَضباً صقيلا
ووقـعَ لسـانٌ كحـدّ السـنا
ن ورمحـاً طويل القناة عَسُـولا
وسـابغةً مـن جيـاد الـــدرو
عِ تسمع للسَـيف فيهـا صـليلا

فالشعر والسلاح يصدران عن سبب واحد ، ويؤديان مهمة واحدة ، ويحملان هدفاً واحداً ، ويؤثران في الخصم تأثيراً متقارباً من حيث الاداء • ولابد ان ترتبط عناصرهما الاساسية ، وتتفق خائصهما في حدود تلك الاهداف • واذا حاولنا تخصيص ضرب واحد من الشعر وهو الهجاء ، استطعنا ان نحـدد وسيلة من وسائل التعبير ، وطريقة من طرق الحس ، ونموذجا من نماذج التفكير التي تختلف عن طرق الاخرين التي تثير في النفس المعارضة او السـخط او الغضب •

ان السياق الزمني الذي مرت به اللفظة هو السياق الذي حـدد لنـا الاصطلاح الذي شاعت فيه واستخدمت في حدوده ، فعندما كانت لفظـة الهجاء تضيق في حدود المعايب الشخصية كانت تنحسر كل معانيها في هـذه الدائرة ، لانها اقتصرت على ما تحققه هذه الدائرة ، والتزمت بالاسـاليب التي كانت تؤديها ، والاغراض التي تستخدم فيها • وهي دائرة تقف عنـد اعتبارات السخط والغضب الناتجة عن الفخر القبلي بتجريد الخصوم من القيم

---

(١) المفضل الضبي : المفضليات ٢/١٨٦ .

المحمودة التي تمثل اعرافا اجتماعية متفقا عليها ، وملتزما بمقاييسها ، ووضعهم في المكانة التي تجعلهم اهدافا للنقد ، ومواضع للاستخفاف ، وصورا للسخرية وقد اخذت هذه المعاني احجاما في شعر الشعراء ، ولكنها تشكل الصورة الواضحة التي ظلت معانيها تستخدم في المحيط الاجتماعي والقبلي ، وبقيت تأثيراتها تؤلف النبع الذي يستمد منه الشعراء هجاءهم لاسكات الاصوات ، وتوجيه المجموعة القبلية الى الحرص على الالتزام بكل ما يدعو الى الحفاظ على هذه المكانة ، والدعوة الى ابقاء الانسان في المكانة المرموقة ، لان الرقابة الشعرية ، والرصد الاجتماعي ، والتقصي وراء السلوك المناهض لتلك القيم كان قادرا على ادراك كل جوانب السقوط التي ينحدر اليها الناس ، ومتابعاً لكل الاخفاقات التي تلحق بهولاء الناس في حالة تنازلهم عن تلك القيم ، ووقوعهم في دائرة التهاون الذي يحمل عليهم هجاء الشعراء ، وهذا ما حقق للهجاء الدور البارز في تقويم الحركة الاجتماعية لانه يمثل السوط المرفوع لرد كل النزعات الشريرة ، وكبح كل النفوس التي تحاول التجاوز او الخروج على الاعراف السائدة والتقاليد التي اصبحت دستورا للقبيلة ، وايقاف جموحها ، والحد من استمراريتها في المعاصي .

ان مهمة الهجاء في ظل الواقع الاجتماعي القبلي كانت مهمة اصلاح وتقويم لانه وسيلة العلاج ، وطريق الدفاع عن الحقيقة التي ترسخت اصولها في الاذهان ، وقبل بها الناس اعرافا متداولة ، وقيما مشاعة ، ومثلا يحسن الخضوع لها بسبب قدرتها على شد التماسك بين الافراد . وتوثيق الاواصر ، وتنمية العلاقات ، وان هذه المهمة لم تنحصر في قدرتها على اقتناص الاسباب وحدها ، او الترصد الذي يفقد الهدف غايته ، وانما كان اقتناصا واعيا ، وترصدا مدركا . تتحسس الفرق بين واقع الاشياء وبين ما يجب ان تكون عليه ، بين حقيقة القيم وما يمكن ان يطبق منها ، بين انسانية العادات وما يمكن ان يعود بسببها على المجموعة بالسعادة والرفاه . وهنا تتجلى قدرة الشعراء التي

تحدد هذه المهام ، وتفرز النتائج التي تخرج على المألوف لتكون شريحة للنقد ، وصورة للهجاء ، ورمزا من رموز التقريع والتأنيب . وعندها تستجيب لهذا الصوت كل النوازع الكامنة التي استثارتها قدرة الشعراء لتردد معهم هـذا الصوت ، وترفع نبراته الحادة لتملأ الارض ، وتنتشر فوق ربوع الجزيرة فتطوي فيافيها المقفرة على لسان مرتحل ازجى مطيته ، او شاعر حمل همومه فلم تستقر به ارض .

لقد ظل المجتمع العربي أمينا على قيمة التي رسختها مسيرة الامة الطويلة ، وبقي يعتز بولائـه لكل المثـل التي نـادت بها الامـة ، وقدمت من أجلهـا اعظم التضحيات ، لان هذا المجتمع كان يشعر بمهمته الاجتماعية والاخلاقية التي كان يحققها في هذا الاتجاه ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يكشف عـن خوافي النفوس التي تتظاهر بغير ما هي عليه ، وتعبر عما ليس تعتقد به ، وتجاهر بما ليس في داخلها . وكثيرا ما كانت تتضح هذه المهام في تقريع الخصال الذميمة وفضح الاساليب غير الانسانية التي تمارس في حدود القبيلة ، ونزع الثقـة من بعض الاشخاص الذين منحتهم مجتمعاتهم الولاء ، ودواعي التقدير ، وهي ظاهرة تعكس غريزة الاحتجاج الدفينة التي تتولد في نفوس الشعراء لوضـع الامور في مواضعها المناسبة ، وتقدير الاشياء تقديرا يتلاءم والمراحل التـي يمكن ان تكون فيه .. وهي بالتالي مسألة اجتماعية تتناول ،الموضـوعات تناولا موضوعيا يحدد فيها زاوية النقد ، ويعالج في اطارها المسائل معالجـة صائبة ـ في كثير من الاحيان ـ لان بعض الموضوعات قد تصاحبها قـدرة العواطف ، او تتداخل فيها الاسباب الذاتية . وقد قدم الشعر العربي قبـل الاسلام صورا رائدة في هذا المجال يمكن الاستشهاد بها والوقوف عليها[1] .

---

(١) تنظر قصائد الاعشي في ديوانه : ٢٦ و ٣٤ و ٢٠ و ١٩ و ٧٣ و ٦٢ و١٨ و١٥ وقصائد بشر بن ابـي خازم . ١،٤،١٧،٣٤، . والاصمعيات ٥و١٣ و ٤٥ و ٨٩ وديوان لبيد / ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧٠ ، ٢٣١ .

لقد حددت طبيعة الهجاء المسلك الذي سار فيه هذا الغرض الشعري ، ووضعت مضامينه في القنوات الحياتية التي وجدت فيها الجريان السهل ، والوصول السريع والتأثير المباشر ، وهي طبيعة متداخلة من حيث التأثير ومتواصلة من حيث الاستمرار والتوجه ، وقد وجدت هذه الاهداف صور المعاني المستخدمة لانها تدخل في حالة الدفاع عن النفس ، واضعاف شوكة الخصم ، واستلاب الصفات الحميدة ، وانتزاع المعاني الخيرة ، وتجريده من القيم التي يعتز بها الانسان . وكان الشعراء يتوسلون الى ذلك باساليب التهكم والسخرية للنيل من هؤلاء الخصوم ، ويلجأون الى أساليب المفاضلة التي يتخذون منها مجالا لعقد المقارنة ، وابراز النقائض ، وتمييز الصور المتباعدة :

ياعجب الدهر متى سويّا

كم ضاحك من ذا ومن ساخر

وهي حالة انسانية متحركة ، استقطبت عناصر الشد والتأزم ، واستوعبت قدرة التعبير والتمثل فكانت اسلوبا من اساليب المقاومة ، وصوتا من اصوات الانتفاض التي يظل صداها متجاوبا في كثير من النفوس ، ومترددا في اوساط كثيرة من المحافل ، ولعل الشاعر بشر بن ابي خازم الاسدي يعد نموذجا من نماذج الشعراء الذين عرفوا باستخدام هذه القدرة ، وهو يجعل اوس ابن حارثة هدفا كبيرا من اهداف هجائه لاسباب قد تختلف مع كثير من الاسباب التي حددها النقاد القدامى ، فهي لم تكن رغبة في الطمع ، او حبا في المال الذي أغري به ، او انتقاصا لغرض الانتقاص ، وانما كان محاولة لتجريده مما كان يفخر به ، فهو من قوم لايوفون اذا وعدوا ، قاصرون عن غاية

الجود والكرم اذا اشتدت الازمات ، ضعفاء اذا اشتعلت الحرب ، وخرجت النسوة الى الخلاء من الفزع[٢] :

فياعجباً عجبت لآل لأم
أمَا لهمُ اذا عَقدوا وفاءُ

وأنكاس اذا استعرَت ضروس
تخلّى من مخافتها النساءُ

ثم يعود الى الاحتماء بقبيلة بني أسد عندما علم بوعيد أوس فيقول[٣] :

فياعجباً ايوعدني ابن سُعْدى
وقد أبدى مَساوئه الهجاء

وحولي من بني اسد حُلول
كمثل الليل ضاقَ به الفضاء

ويظل هذا الصوت يرتفع في قصيدته الثانية التي هجا فيها آوس بن حارثة ، وتظل المعاني التي حاول التركيز عليها تتردد في مضامينها ، لانتزاع الثقة من نفسه ، واسقاط مركزه الذي عرف به بين ابناء قبيلته ، وبين القبائل الأخرى وتأكيد خروجه على العرف الذي اصبح قانونا يلتزم به ، وتراثا يعتز بفضائله.. وهي صورة كانت تمتد أواصرها في كثير من شعر الهجاء ، وتأخذ حجمها في قصائد تناثرت في دواوين الشعراء ، لانها كانت تمثل الملتقى الفكري ، والتوجه الاجتماعي الذي أخذ به الشعراء انفسهم لتثبيت هذه المفاهيم ، وترسيخ أقدارها التي كانت تجد صداها في النفوس ، والاستجابة لها في المشاعر ، والتاكيد عليها في أحاديث المجالس والاندية ..[٤]

---

(٢) بشر بن ابي خازم . الديوان / ٣ .
(٣) بشر : الديوان / ٤ .
(٤) بشر : الديوان / ٨ .

ألا أبلـــغ بنـــي لأمٍ رســـولا فبئس محـل راحلـة الغـــريب
اذا عقـــدوا لجـــار اخفـــروه كمـا غـر الـرشاء من الـذنوب
أتوعدني بقومك يابن ســـعدى وذلـك مـن ملمـات الخـطوب
وحـولي من بنـي أســد حلـول مبن بـين شبـــان وشـــيب

والشاعر هنا يدافع عن القيم التي نشأ عليها المجتمع ، ودافع عنها ، والتزم بادائها ، ويحرص على استمرارها والحفاظ عليها وانتقالها من جيل الى جيـل ، ويؤكد موقفه من الذين لايحفظون أصولها ، وهي حقيقة تؤكدها الحقائق التي ترتبت عليها وظلت قصائد بشر بن ابي خازم الخمس صوتا يرتفع ليسلب كل أشكال السيادة التي تمتع بهـا هذا الرجل ، وصحيفة تجوب الجزيرة العربية لتعلن على كل الرؤوس اعمال آوس ، وتنشر خصاله التي وصفه بهـا بشر ، وتسقطه من المكانة الرفيعة التي عرف بها ، لأنه ــ وفي مفهوم الشاعر ، وقد يكون الشاعر مبالغا ــ خرج عليها،وخرج على كل ماألفته الطبيعةالعربية وتعوده المجتمـع ، من وفاء بالعهـد ، ومناصرة للضعيف ،ودفاع عن المرأة واطعام للضيف ، وانجاز الوعد • وان حرص الشاعر الذي حملـه على أن يتحمل خصومة أوس كان عاملا حاسما ، ووظيفة لازمة ، ومهمة اجتماعيـة دفعته الى ان يخوض غمار هذا الموقف ، ويحدد وظيفته القومية التي تفرض عليه الدفاع عن المضامين الأجتماعية ، والقيم الأنسانية التي عاشت مع كـل فرد ، وتحققت في كل نموذج ، وتوثقت في كل عمل حرص عليه الأبنـاء وان الواجب الأنساني والقيادي الذي وضعته القبيلة في اعناق شعرائها والمسؤولية التربوية التي فرضتها تقاليد المجتمع ، واساليب بنائه المتكاملـة ، وحققهـا الحريصون على ترسيخ اصولها ، كانت تلزم الشاعر بهذا الموقف ، وتفـرض عليه أن يسلك هـذا المسلك ، كما حاول بشر أن يباشر الهجاء في قصيـدته الثالثة ، وهو يهجو أوس بن حارثة ، ويتجاوز التقليد الفني الذي درج عليه في القصيدة الاولى والثانية ، وكأنه أراد أن يكون أكثر ايغالا في الايذاء ،

واعنف هجوما في التقويم واشد تنكيلا في المبادرة . وفي تحليل مضامين هذه القصيدة وجدنا الشاعر يستهزيء بقوم أوس من البيت الأول بعد أن باشر الغرض دون مقدمات وحاول أن يصل اليهم بلا تمهيد ، ثم يصب عليهم غضبه في الأبيات الاخرى وهو يجردهم من الخصائص التي عرف بها كرام الناس واشداؤهم ، وحاول أن يضعهم في صفوف الضعاف الذين لا يثبتون في الحرب ولا يصدقون القتال ويتهمهم بالتبعية وعدم الوفاء بعهد الجار وتنصلهم عن معاونة الفقراء ، ويصل الهجاء ذروته عندما يفرده لأوس بعد أن اشتفى من قبيلته حين يقول : (٥) ..

اذا ما المكرمات رُفعن يوما مددت لنيلها باعا قصيرا
غدرت بجار بيتك يا ابن لأم وكنت بمثل فعلتها جديرا

ان المعاني التي حاول الشاعر أن يستخدمها في الهجاء هي المعاني التي حرص المجتمع على احترامها ، ووضع كل طاقاته من اجل الحفاظ عليها ، والاهتداء بقيمها التي تغني المجتمع بعطائها ، وتصلح اخطاءه التي لم يستطع علاجها في ظل اوضاعه القائمة ، وأحواله السائدة . وان دعوات الشعراء واصواتهم التي كانت توجه الى الاشخاص الذين لايلتزمون بها تمثل الريادة الاصيلة التي امتلكها هؤلاء الشعراء وهم ينشرون قصائدهم ، ويذيعون اراءهم ، ويمررون افكارهم ، وعلى الرغم من المبالغات او عدم الدقة التي تتخلل هذه الاصوات او الدوافع الشخصية او الذاتية او القبلية التي تستثيرهم فانها كانت تحمل الشعار الذي كان المجتمع يقبل به والصورة التي يميز بها حياته المستمرة ، وقيمه التي تأصلت في كل سلوك من سلوك ابنائه ، وقد تركت هذه القصائد الهجائية أثرها في نفس أوس ، بعد ان سلخته من كثير من الخصائص التي عرف بها ، وشهر بالاتصاف بها « حتى نذر لو ظفر به

---

(٥) بشر بن ابي خازم . الديوان ٩٠ ـ ٩١ .

ليحرقه »[٦] ولم يحل هذا النذر ، والنتائج المترتبة عليه دون استمرار بشر بهجائه لايمانه بان القيم التي تحدث عنها هي القيم التي أوكل بالدفاع عنها ، وبأن الصفات النبيلة التي دافع عنها ، واتهم أوس بالتنازل عنها ، هي الصفات التي حددتها القيم العربية الاصيلة ، وارتضاها السلوك الاجتماعي ، وامن بها الجمهور لانها جزء من حياته ، واستكمال لبناء شخصيته ، وتسكن أوس من بشر فأسره • واراد ان يفي بنذره ، واوقد نارا ليحرقنه ولكنه يعدل عن ذلك وتقول بعض الروايات ، أدخله في جلد بعير بعد ان سلخه ، ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه ، زيادة في ايذائه ، وايغالا في تحقير شأنه ، وعندما بلغ ذلك (سعدى) أم أوس ، وكانت سيدة من سادات طي ، ذات رأي وحكمة ، خرجت اليه وقالت له : قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك ، لقد مات ابوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لا ارجوك لنفسك خاصة ، والله لكأنك أخذت (رَهْدناً)[٧] ، أما تعلم ما منزلته في قومه ، او ما تعلم أنه هجاك في بني بدر ، أزعمت أنك تحرق رجلا هجاك ، اذا من يمحو ما قال فيك • وأيم الله لو فعلت ماأستقلتها أنت ولا قومك أبدا • فقال لها أوس ، فما أصنع به • قالت أرى ان ترد عليه ماله ، وتعفو عنه ، وتحبوه وتكرمه • فانه لايغسل عنك ما صنع غيره •

لقد كانت كلمات (سعدى) ذات دلالة اجتماعية كبيرة لانها تعلم قيمة الهجاء ، وتدرك أثاره العميقة التي ستتركها في كل نفس ، وما تتحمله القبيلة وهي تستمع الى أهاجي هذا الشاعر التي طبقت كل أفق ، واصبحت على كل لسان ، وتبودلت في كل مجلس ، وانها تعلم ان الصورة التي رسمها لاوس هي صورة الضعف والتجريد من كل الخصال ، وان الاحاديث التي

---

(٦) تنظر القصة كاملة في كامل المبرد / ١٩٩ وثمار القلوب ٩١ ـ ٩٢ وكامل ابن الاثير ١/٢٦٦ والخزانة ٢ /٢٦٣ ، ٤ / ١١١ ومقدمة ديوان بشر / ٢٥ ـ ٣١ .

(٧) الرهدن . طائر صغير كالعصفور ، تريد المراة ان تعظم من شأن بشر وتبين انه ليس شيئا هينا لهذا الطائر .

طوتها أهاجيه كانت تمثل الاحاديث التي تتبرأ منها كل القبائل ، ويأنف منهـا كل الاشخاص • وهذا يعني انها ستظل ملاصقة لكل الاجيال التي تتوارث أوسا أو ابناء قبيلته ، وستلاحقهم على الرغم من كل الاعمال الكبيرة التـي سيقومون بها ، أو الايام الجليلة التي سيبلون فيها ، او البطولات الخالدة التي يسجلونها في كل معركة من المعارك •

و (سعدى) المرأة الذكية كانت تعرف أبعاد العمل الذي أقدم عليـه أوس ، وحاول تنفيذه ، وان العرب وقوم بشر سيذكرون فعلته بكل مرارة ، وسيقولون فيها ما يقولون ، وان اللعنة الانسانية التي يتحملها من جراء حرقه لهذا الشاعر بسبب هجائه سوف لن تمحوها كل الحسنات الكبيرة التي يحاولها والاعمال الانسانية التي يقدمها ، كانت الام الكريمة تعرف كل هذا ، وتدرك اطراف المسألة الاجتماعية واثار الضغط القبلي الذي سيتعرضون اليه ، وهذا ما دفعها الى ان تعلن رأيها بصراحة • وهذا يؤكد قوة الصوت الشعري،وشموخ الدفاع عن القيم ، والتمسك بمضامين الشعر الهجائي الذي كان يمثل التوجيه الحقيقي لكل محاولة تبتعد عن الطريق السليم ، والريادة الاصيلة التي يمتلكها الشعراء،وهم يقفون لصدتلك المحاولات بجرأة،لانهم يعلمون ان المجتمع يحميهم، وان العرف الاجتماعي كان يمنحهم الحصانة التي تميزهم عن غـيرهم ، وان الصوت الذي يرتفع لحجب اصواتهم ينتهي عند أبعاد محددة ، ويقف في حصار دائرة مغلقة وان الكلمات التي تنطلق من افواههم ستظل قوية وعنيفة ، وان اية كلمة لاتستطيع اسكاتها الا الكلمات التي تصدر عن نفس الاصل الـذي صدرت عنه • وان المجتمع الكبير الذي ترسخت فيه هذه المفاهيم لايتساهل مع المحاولات التي تنطلق لتشويه تلك المفاهيم او الحاق الاذى بمن حاول الدفاع عنها ، او ايقاف تلك الاصوات التي لم تعرف حدودا ، ولم تقف عند قنـاة اعلامية واحدة ، او رقابة تفرضها جهة يُضيرها ارتفاع هذا الصوت •

وصنع أوس ما طلبته منه امه ، واستجاب لدعوتها ، وعفا عن بشر وكرمه واحسن اليه ، ولم يكن بشر بعيدا عن هذه المكرمة التي سجلت مكرمة اخرى في مكارم العرف العربي ، ومحمدة جديدة من محامد المجد الذي أغنته اعمال هؤلاء الرجال فكان جوابه لاوس بمستوى عمل أوس له ، وقد تحقق قول بشر له : لا جرم والله لا مدحت احدا حتى أموت غيرك ، وصدق بشر ، فمدح أوساً مكان كل قصيدة هجاه بها قصيدة ، اكراما له ، وتحقيقا لانسانيته ، وكان شعره في مديحه أبلغ وأجمل منه في هجائه ، فدلل بشر على أمانته ووفائه ، بعد ان التزم بهذا السلوك الاجتماعي الذي اعطى الناس حقوقهم اذا حرصوا عليها ، والتزموا بأدائها ، وحفظوا استمرارها .

وبقي الشعراء يحملون عن أقوامهم مسؤولية الدفاع ، ويتولون مهمة استرداد كل الحقوق التي أوشكت ان تضيع أو حاول البعض الاستيلاء عليها ، باسباب غير مشروعة ، وحجج غير مقنعة ، وهو هجاء يتخذ طابع المناقشة الهادئة ، والحجة البينة ، والدليل الواضح ، وهنا يلتقى شعر زهير بن ابي سلمى بشعر بشر بن ابي خازم وبشعر الشعراء الاخرين الذين وضعوا انفسهم في المواقع نفسها ، فعندما أغار الحارث بن ورقاء الاسدي واصاب سببا ومالا انصرف راجعا ، فوجد غلاما لزهير بن ابي سلمى فاستاقه وهو يحرم عليه لحلف اسد وغطفان ، فبلغ زهيرا فأرسل اليه أن يرده فأبى ، فقال في ذلك زهير[٨] .

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية
لم يَلْقَها سُوقَةٌ قبلي ولا ملِكُ

فارْدُدْ يَساراً ولا تَعْنُفْ عليّ ولا
تَمْعَكْ بِعِرضِكِ إنّ الغادر المَعَكُ

---

(٨) زهير . الديوان / ١٨٠ – ١٨٣ .

ولا تكـــونَنْ كأقـــوامٍ علمتُهـــمُ
يَلْوُون مـــا عندهم حتى إذا نُهكـــوا

طابت نفوسُهـم عـن حـــقٍّ خصـــمهم
مخـافةَ الشَرّ فارتدّوا لمِـا تَركُـوا

لئـن حَلَلْتَ بجـــوٍّ في بني أسَـدٍ
في دين عمروٍ وحَـالت بيننـا فَـــدَكُ

ليأتينّـكَ منـيٍّ منطِـقٌ قَـــذَعٌ
باقٍ كمـــا دَنّس القُبطيّـــة الـودَكُ

وقيل لما أتت الحارث بن ورقاء لم يلتفت اليها فقال زهير هذه القصيدة[٩].

تَعَلّـــم أن شـــرَّ النـــاسِ حـــي
يُنـــادي فـي شِـــعارهم يَســـار

وفي الديوان قصيدة أخرى تشير الى عودة يسار غير مغلول ولا مهان ولكنه كان عند ذي كرم ، يعرف الوفاء ويفي بالعهود[١٠] .

وتقول بعض الروايات ان قوم الحارث بن ورقاء طلبوا منه بعد ان سمعوا قصيدة زهير الاولى ان يقتل يسارا الا انه ابى ذلك ورده الى اهله كريما بعد ان كساه ، واكرم مثواه ، وهي اشارة تذكرنا بصنيع اوس بن حارثة مع بشر بن ابي خازم ، وكلا الرجلين كانا يعلمان النتائج التي تترتب على القتل ، وان الشعر سينال منهما ، وستبقى اللعنة تلاحقهما اجيالا بعيدة ، فمديح زهير بعد رد غلامه هو الذي مسح هجاءه لانه صدر عن نفس المنبع ، والشاعر هو الوحيد الذي يستطيع ان يرد اعتبار المهجو ..

---

(٩) زهير . الديوان / ٣٠٠ .

(١٠) زهير . الديوان / ٣٠٨ .

وكان الشعراء يندفعون في بعض الاحيان وراء بعض الاقوال غير الصحيحة ، تمسكا بمبدأ الدفاع عن القبيلة ، وحرصا على السمعة التي تتمتع بها ، وتأكيدا لموقع الشعراء الذين يحفظون لها مكانتها بين القبائل ، ولكنهم عندما يشعرون بالحقيقة ، وتتكشف لهم الدوافع يندمون على فعلتهم ، وهذا دليل صدقهم ، لانهم يظلون يعانون من مواقفهم هذه فعندما أتى رجل من بني عبدالله بن غطفان بني عليم ونزل بهم اكرموه واحسنوا جواره وواسوه . وكان رجلا مولعا بالقمار فنهوه عنه فأبى الا المقامرة ، فقمر مرة فردوا عليه ، ثم قمر أخرى فردوا عليه ، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه ، فرحل من عندهم وشكا ما صنع به الى زهير ، والعرب اذ ذاك ــ كما ذكر في مقدمة القصيدة يتقون الشعراء اتقاء شديدا ، فقال يهجو عليما وقال « ما خرجت في ليلة ظلماء الا خشيت ان يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم فقال القصيدة[11]

ومقولة زهير تؤكد الهدف الذي كان الشاعر يسعى اليه ، والرسالة التي يحملها ، والانصاف الذي يعد الغاية التي كان يرجوها من شعره ، لان المثل الكبيرة التي كانت تتحقق في البناء الاجتماعي والقبلي والتي كان يعبر عنها من خلال شعره كانت تمثل الرافد العظيم الذي ينظم حياة الجماعة ، ويدعوها الى التمسك بكل المعاني الاصيلة التي عاشت عليها الامة ، ودافعت عنها ، وبذلت من اجل الحفاظ عليها كل الجهود الممكنة ، واستخدمت من اجل استمرارها كل الوسائل الكفيلة بالاستمرار او القادرة على النقل ،

اما اتجاه الهجاء الثاني فهو الاتجاه الذي يدخل في الاطار السياسي في حدوده العامة والتي تؤكد ارتكازه على القيم القومية التي كانت ترفض كل اشكال السيطرة الاجنبية التي تحاول فرض سلطانها على القبائل ، لان معاني هذا الضرب من الهجاء كان يدخل في تمجيد الحرية ، ومقارعة الطغيان ، وايقاف تجاوزات الظلم مستمدا معانيه من الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشعراء ، والحس القومي الذي يشد كل الابناء ، والحق الصريح الذي يدفع اصحابه

---

(11) زهير . الديوان / ٥٦ .

الى المطالبة به . وهو هجاء كان ينطلق من احساس شعراء القبائل العربية التي كانت تتاخم في سكناها المناذرة . ومن الطبيعي ان يتسم شعر هؤلاء بهذه السمة لانهم كانوا يعيشون التحدي ، ويدركون صورة التسلط الذي تمارسه هذه الدولة ، ومن يقف وراءها من الفرس ، وقد تضمن شعر هؤلاء الشعراء المعاني التي كانت تتداخل في أشكال المقاومة ، والمضامين القومية التي كانت تجاهر بالمجابهة ، الى جانب الاعتزاز الحاد ، والتحسس الاصيل ، لانهم كانوا يواجهون الامر ، ويتلمسون مواقع الاضطهاد العنصري التي كانت تمارسه العناصر الاجنبية ، وهذا ما دفع معظم الشعراء الى ان يتخذوا الهجاء وسيلة للذب عن وجودهم ، والدفاع عن احسابهم ، والدعوة الى المطالبة بالارض التي استباحتها دولةالفرس او دولة الروم. وفي نماذجيزيد بن الخذّاق الشنيّ الذي هدد النعمان واتهمه بالخيانة والخداع ، واضمار الشر ، بعد ان استخف به ، وقد بدا قصيدته بنعت فرسه وسلاحه ثم وجه القول الى النعمان مهدّداً ، وفخر بقومه ، واستعصائهم على من يبغيهم الذل والخسف[١٢] والمتلمس الضبعي الذي افتتح قصيدته بحتمية الموت والنهاية المقدرة اشار الى ان قبول الضيم مخافة الموت عجز ، ثم سخر من النعمان ، وطلب منه ان يغزو ارضهم بعد ان اينع الزرع واخصبت الارض وساد طنين الذباب والزنابير ، تحديا للنعمان واستخفافا به ولم ينس في نهاية القصيدة الاشارة الى اباء قومه[١٣] ، وهجا عمرو بن هند واستخف باحلامهوفخر بقومه[١٤] وصنع طرفةبن العبد والحارث ابن ظالم هذا الصنع .. وقد تميزت معظم هذه القصائد بهجائها اللاذع الذي اعتمد الجانب النفسي باستلاب الفضائل من نفس المهجو والسخرية منه ، والاستخفاف بوعيده ، وتهديده ، والاشارة الى اقوام الشعراء وبلائهم في المعارك ، والوقوف عند بعض ايامهم الى جانب الايمان بالموت حقيقة قائمة ، ولابد للانسان ان يموت ميتة كريمة .

---

(١٢) المفضل الضبي . المفضليات ٢/٩٥ ـ ٩٦ .
(١٣) المتلمس . الديوان . ١١٠١ .
(١٤) المتلمس . الديوان . ٤٢١ .

ومن الواضح ان هؤلاء الشعراء يمثلون القبائل العربية التي كانت تعيش على الحدود الشرقية لجزيرة العرب ، وان الصور البيانية والمعاني ألتي كانوا يستخدمونها في هجائهم كانت تمثل التيار الرافض الذي ظلت القبائل العربية تتحسس به • وان اشكال هذا الهجاء تحدد السلوك العام الذي كان يطوي خوافق الحس ، ويجسد صدق المشاعر ويجاهر باساليب المقاومة التي تنادي بها القبائل العربية وهي تتوحد صورة في التحدي ، وقدرة في التهديد ، ولونا متميزا من الوان النضال القومي ، ووحدة المعاني التي طواها الشعر • فالدعوة الى جمع الشمل ، ونبذ الفرقة ، وتسجيل ظواهر الاضطهاد ، وتهديد الملوك ، والاستخفاف بهم ، والتحدث بضمير الجماعة ، والتهيء ليوم الروع ، واستقبال الموت بشجاعة ، والايمان بالنهاية التي ينتهي اليها كل انسان • كل هذه المعاني كانت تدور في قصائدهم وهي تتسرب في معاني الهجاء الموجه الى اولئك الملوك الذين حاولوا بشتى الطرق السيطرة على الارض العربية ، وارتضوا لنفوسهم ان يكونوا صنائع تحركهم المطامع ، وادوات تستخدمهم الاغراض •

وسأحاول الوقوف في حديثي على هذا الجانب عند شاعر واحد هو الاعشى فالاعشى شاعر له قدرته الشعرية التي وضعته في الطبقة الاولى ومع ثلاثة شعراء اخرين من شعراء العرب قبل الاسلام هم امرؤ القيس وزهير ابن ابي سلمى والنابغة الذبياني ، وقد عرف هذا الشاعر بحسه القومي الذي توزع بين استثارة تهز النفوس ، واشادة تمجد المحامد ، وتمجيد يخلد المآثر ، وموقف يحدد هوية المتخاذلين • ويشخص نزعات الضالعين في ركاب التبعية ، والسائرين في دروب الضياع ، وللاعشى صوته الشامخ الذى ارتفع مع بقية الاصوات ليقف ضمن مجموعة الشعراء السبعة او التسعة او العشرة عند بعض شرّاح الشعر ، وله امتداده الزمني المفتوح الذي تحرك في اوسع دائرة في الجزيرة العربية، وحظي باكبر قسط من المخاطبات المباشرة لاعداد غفيرة من البشر كانت لها مواقفها المحمودة ، ومراكزها المرموقة ، وهو بعد كل هذا شاعر قيس بلا منازع وصَنّاجة العرب ، ورائد الرحلة الطويلة التي زخرت بكل وصف ، ووقفت عند كل طلل ، وحملت كثيرا من المشاعر الرقيقة لتجوب

مفاوز الجزيرة ، وتنقل الاصوات الحرة ان تجربة هذا الشاعر كانت غنية ، وحركته سريعة ، واحساسه بلوازم الحياة اكثر تجاوبا ، واشد تأثرا ، • ومن يطلع على ديوانه يجد فيه تزاحم الاحاسيس ، وتشابك الصور ، وتداخل الانغام البشرية التي تستقبل القاري في كل قصيدة ، وتتناثر امامه بأوعية زاهية تكاد ألوانها البراقة تخطف كل نظرة ، وتستقطب كل التفاتة •

هذا الشاعر الاصيل حمل في بعض قصائده اصالة التوجيه ، وحاول ان يتخذ من الهجاء سلاحا لبناء المجتمع ، وتوجيه ابنائه الوجهة التي تخدم وحدة البناء ، وتدعو الى توثيق عرى التواصل ، وترفع شأن الامة عن طريق اللوم المباشر ، والتقريع الحاد ، والمحاورة الهادفة ، وهو في كل واحدة من تلك القصائد كان يحسن اختيار الموقف ، ويوفق في تحديد الجهة ، ويبدع في انتقاء المبررات والحجج ، ولهذا كانت مواقفه في يوم (ذي قار) مشهورة ، وقصائده في تسجيل بطولة الامة معروفة يتناقلها الرواة ، ويذكرها الابناء في كل محفل ، وقد تركت هذه القصائد بصماتها فوق كثير من النصوص ، وعند سلاسل من الرواة وفي ثنايا مجموعة من الاخبار ، وهي تؤكد قدرة الشاعر الخالد على استلهام طبيعة الاحداث ، واستيعاب معالم الواقع ، واستيحاء ابعاد الصو ر التي تلازم الظروف في المرحلة التي مرت بها الامة • لقد كانت مواقفه هذه لازمة من لوازم الشاعر ، لانها استثارت عواطفه ، وبعثت في كثير من قصائده امارات الشجاعة ، وعلامات النزوع القومي الاصيل ، فبنى عليه كل مواقفه التي استحق عليها التخليد ، لان (ذي قار) هيأت له من الابعاد القومية والانسانية ما دفعه الى ان يقرر المسلك الحقيقي لمسيرته الواضحة ، ولخطّه الشعري الملتزم الذي تداعت اليه كل الاصوات الخيرة من الابناء ليكونوا مع الامة في يوم من اشد ايامها تأزما ، ومن اكثرها حسما في تقرير مصيرها ، ووجد الشاعر في شخصية قيس بن مسعود النموذج الخياني الواضح الذي عبر و في اطار الحدث القائم عن كل الصور التي كانت تدور في نفسه او تتحرك في نفوس الاخرين من ابناء قومه ، وهم ينظرون الى هذه الخيانة

المجسدة ، والتخاذل المشين والتورط الذليل الذي وقع فيه وهو يُسقط كل الاقنعة الهزيلة التي حاول ان يضعها على وجهه المشوه .

كانت هذه الصورة تتألق في عيني وانا أقرأ له القطعة التي وجهها الى قيس بن مسعود هذا حين وفد على كسرى بعد ذي قار ، وقيس هذا كان واليا لكسرى على (الابلة) ، ولاه عليها شراء لذمته ، وثمنا لخيانته ، وقد سار مع جيش كسرى لمحاربة بكر في يوم (ذي قار) ثم رحل بعد هزيمة كسرى ليعتذر اليه عن انتصار قومه ، وما صنعوه بكسرى وجيشه .

والاعشى في هذا الموقف يلومه على مسيره ، ويسفه رأيه ، ويذكره بأن قومه كانوا كفيلين بحمايته لو اراد ، لانهم يملكون القوة والقدرة والسلاح والعتاد ، فلو استعان بهم لكفوه مؤونه الخصم ، ولو اعتمد عليهم لاصبح عزيز الجانب ، فطوائفهم كثيرة ، وجماعاتهم متعددة واموالهم لاحصر لها ، وكتائبهم ضخمة تموج بما ازدحم بها من فرسان وسلاح يرد بريقه عين الناظر وافراس جياد تحيط بها كرائم الابل ونجائب الجمال ، وهذا يغنيه عن كسرى ومذلته وهوانه . وهو يأخذ عليه قيامه بهذه الرحلة التي يطلب فيها الصفح والاعتذار بعد الذي سفك من دماء قومه في هذا اليوم الخالد . فقيس في عرف الاعشى ، وفي اعراف الواقع الاجتماعي انذاك صورة مقيتة ، ومسلك مرفوض وتنازل بائس ، وملمح بشري غريب ، لم يؤمن به المجتمع ولم يقبل بتعامله ولن يرتضي سلوكه الذي خالف به كل التقاليد وناهض كل القيم التي اتفقت على الوقوف بوجه المعتدي ، والتصدي لمحاولاته الرامية للاجهاز على وجود الامة ، واستهداف انسانها الذي وقف بصلابة يتحدى التدخل ، ويجابه الاستغلال ، ويقاوم الوجه الغريب الذي حاول ان يمد تطلعه الى الارض العربية ويبسط سلطانه على الانسان الذي عاش فوق ارضها .

لقد حاول الاعشى ان يوظف الهجاء توظيفا اجتماعيا ، ويبدع في تقديم الصور التي تستهجن الخيانة ، وتستبشع التعاون مع كل معتد ، وتناهض الوقوف في صفوف الخصم لمقاومة المطامح المشروعة ، والاجهاز على امال الامة التي اندفعت بكل قواها لرد عادية الغدر ، وقتل نوازع الاندفاع ، وانهاء اسباب الاستثارة ، وقد اتخذ من الصفات مايعينه على تكبير الصورة البشعة ومن الوقائع ما يساعده على وضع المهجو موضع الازدراء ، ومن الاحداث ما يجعله موفقا في عزله بعد ان حاول قطع المبررات التي يمكن ان يعتمدها المهجو . ومع هذا فقد اكد الشاعر ان المهجو قد ترك قومه سفها ، وابتعد عن دائرتهم جهلا ،وهذا ما دعا الشاعر الى ان يبتعد عنه فلا يسمع منه خيرا ولا يبلغ عنه بنبأ .

والاعشى لم يقف بعد هذا مكتوفاامام خيانة قيس بن مسعود الذي تمنى ان يموت ساعة ولادته ، وليت القوابل غرقنه بمائه حتى لا يكون وصمة عار في تاريخ هذه الامة ، فانبرى وقد تجلّت عناصر قوميته ، واستثيرت دوافع نزوعه الاصيل وتجسدت في اعماقه روح التحدي والمجابهة فاعلنها صرخة قوية في كل طرف من اطراف الجزيرة العربية ، ويرددها كل رواية وشاعر . ويسنمع اليها كل انسان . وهي اليوم تستعاد لأنها سَجّلت للشاعر مأثرة ، وسَجلت لقيس بن مسعود صفحة تاريخ بائسة . بعد أن كانت الأمة ترجو منه الخير ، وتعقد عليه الآمال ، ولكنها شعرت بخيبة الأمل مرتين في عام واحد فقد صحب كسرى (الجزار) والتقى به ، ورحل اليه ، واتفق معه . ولم يجد الأعشى ــ والجزيرة تغلي ، وشعبها ينتظر الخلاص ــ دعاء يقوله سوى انه تمنى لو (مات) ساعة ولد ، وليت (القوابل) غرقنه بمائة لتدفن معه الى الأبد كل الأثام الكبيرة ، وتقتل معه كل نزعات الشرور ، وتسقط صورة التخاذل ، وتنهي معالم التواطؤ والهزيمة وتخفى آثار العار الذي لازمه وبقيت لعنة الأعشى خمسة عشر قرنا ملازمة لهذا الرجل الخائن الذي استهان بحرمة الأمة ، وغرق باثام الخيانة حتى رأسه ..(١٥)

---

(١٥) الاعشى . الديوان / ١٨٣ .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وانت امرؤ ترجو شبابك وائـــل
أطورين في عـام غـزاة ورحلـــة ألا ليت قيسا غـرقته القوابـــل
وليتك حال البحر دونـك كلـــه وكنت لقى تجري عليه السـوائـل
كأنك لـم تشهـد قرابين جمنـة تعبث ضيـاع فيهـم وعواسـل
تركتهم صرعى لدى كـل منهـل وأقبلت تبغي الصلح أمّكَ هابـل
لقد كان في شيبان لو كنت راضيـا قبـاب" وحـيٌ حِلّـة" وقنـايل

وتظل أهاجي الاعشى السياسية التي يرى فيها صوت الحقيقة أداة من الادوات التي يستخدمها تجاه كل الخصوم الذين يقفون مواقف معادية لمطامح الامـة ، ويواصل من خلالها اضعاف شوكتهم وفي الطرف الثاني من المعادلة كان يثير في نفوس الابناء حوافز الاستماته ، ودوافع الاستثارة ليجعلهم أقوى في الثبات واكثر رسوخا في المقاومة وليحقق لهم الموقع المناسب ، ويؤكد في نفوسهم الثقة الكبيرة ، وهذا ماجعله قريبا من القادة السياسيين الذين وضعـوا مصلحـة قومهم فوق كل مصلحة ، فتحركوا في شعاب الجزيرة ومفازاتها ، وطافـوا حواضرها وبواديها ، يحملون رسالة الايمان بوحدتها ، ويستخدمون الشعر في تأكيد القيم التي كانت صورة المجتمع العربي • وقد تجلت هذه الاتجاهـات والمضامين في هجائياته الى كسرى[١٦] ، ولكل الاطراف التي شاركت في ذي قار متنكرة للعرب ، ولكل المعاني الانسانية التي تفرضها عليهم طبيعة الانتماء •

والهجاء في كثير من ضروب المعاني التي تناولها ، والاهداف التي كان يرمي اليها لايكتفي بالمضمون المحدد الذي تحمله المعاني ، وانما تشارك فيـه امور كثيرة تتعلق بشكله العام وتفصيلات اسلوب عرضه ، وتناول اساليب الألفاظ ، وبناء الجملة والاوزان العروضية التي تتداخل فيهـا الايقاعـات ، وتتحرك الموسيقى بشكل يوحي بالصور التي يستخدمها الشعراء ، والايحاءات

(١٦) تنظر في ديوانه القصائد رقم (٣٤) و (٦٢) •